أثر الأذكار الشَّرعية
في طرد الهم والغم

تأليف
عبد الرَّزّاق بن عبد المحسن البدر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر ، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
آثر الأذكار الشرعية في طرد الهم والغم . / عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر. – المدينة المنورة ، ١٤٣١هـ
٤٢ ص ، ١٢ × ١٧سم
ردمك : ؟؟؟؟
١- الوعظ والإرشاد أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣١/٢٢٥٢

رقم الإيداع : ١٤٣١/٢٢٥٢
ردمك : ؟؟؟؟؟

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فمن المعلوم أنَّ الإنسان بين الحين والآخر قد يُلمُّ به بعض الملمَّات، وقد تصيبه بعض المصائب، وقد يُبتلى ببعض الآلام الَّتي تكدِّره، وتُؤلم قلبَه وتعصر فؤاده، وربَّما جَلَبَتْ له الكثيرَ من الحزن أو الهمِّ أو الغمِّ.

وهذا الحزن أو الألم الَّذي يُصيب القلب إمَّا أن يكون متعلِّقًا بأمور ماضية، أو يكون متعلِّقًا بأمور مستقبَلَة، أو يكون متعلِّقًا بحاضر الإنسان.

قد يتذكَّر الإنسان أمورًا مَضَتْ، وأشياء فاتت عليه؛ فيتألَّمَّ ويحزن لذلك، وقد يكون الألم الَّذي أصاب قلبَه يتعلَّق بأمور مستقبلة؛ فيتخوَّف من أشياء قادمة يتوقَّع حصولها، وقد يكون الألم يتعلَّق بواقع الإنسان كمصيبةٌ حلَّتْ به، أو نزلت به فيغتمّ بسببها.

ولهذا يقول العلماء: إنْ كان الألم الَّذي يصيب القلب متعلِّقًا بشيء ماضٍ فهو حزن، وإن كان متعلِّقًا بشيء مستقبل فهو هَمٌّ، وإن كان متعلِّقًا بواقع الإنسان وحاضره فهو غمٌّ.

وهذه الثَّلاث ـ الحزن والهمُّ والغمُّ ـ كلُّها آلامٌ تصل إلى القلب، ثمَّ إنَّها إذا وصلت إلى قلب الإنسان تُتْعِبُه

وتؤرِّقه وتكدِّر خاطره، ولا يكون وضعُه مع وجودها سويًّا طبيعيًّا، حتَّى إنَّك لتقرأ ذلك في بعض الوجوه، تقابل أحدَ زملائك وبدون أن يتحدَّث إليك تقول له: ما بالي أراك مهمومًا أو محزونًا أو مغمومًا بدون أن يتحدَّث، ذلك أنّ آلامه بادية على تقاسيم وجهه، ولاسيما إذا اشتدَّت عليه، فهي أمور تصيب الإنسان لأسباب ولأحوال متنوِّعة تمرُّ عليه في هذه الحياة.

وعند النَّظر في طريقة علاجها والسَّعي في إبعادها وإزالتها من القلب؛ نجد أنَّ النَّاس يتفاوتون في هذا الباب تفاوتًا عظيمًا، وينحون في العلاج مناحٍ شتَّى، ولكن لا علاج ولا دواء ولا شفاء ولا سلامة من ذلك كلِّه إلَّا بالعودة الصَّادقة إلى الله ـ جلَّا وعلا ـ.

فبالعودة إلى الله، وذِكْره، وتعظيمه، وعمارة القلب بتوحيده، والإيمان به، واللُّجوء الصَّادق إلى الله،

والافتقار إليه، والذُّلِّ بين يديه، والانكسار له ـ سبحانه ـ؛ تذهب ولا يبقى منها شيءٌ.

والذِّكر هو طُمأنينةُ القلوب، وأنسُ النُّفوس، وذهابُ الهموم والغموم، كما قال الله جلَّا وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، فطُمأنينة القلب وزوال همِّه وغمِّه وحزنِه؛ إنَّما يكون بذكر الله وتعظيمه، وعمارة القلب بالإيمان به عَزَّوَجَلَّ.

وعليه؛ فإنَّ الذِّكر هو الشِّفاء، وهو الدَّواء.

وقد جاء عن النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أذكارٌ عديدة، أرشد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مَنْ أصابه كربٌ أو حلَّ به همٌّ أو نزل به غمٌّ؛ أن يفزع إليها، وأن يُحافظ عليها، وأن يأتي بها ليزول عنه ما يجد، وليذهب عنه ألمه وهمُّه وغمُّه.

وقد ورد في هذا الباب أحاديث عديدة خرَّجها أهل العلم في كتب الحديث.

وسأورد طائفةً عطرةً، ونخبةً مباركةً من هذه الدَّعوات والأذكار العظيمة الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ، والَّتي يُشرع للمسلم أن يقولها عندما يصيبه الهمُّ أو الكربُ أو الحزنُ أو نحو ذلك.

روى البخاريُّ ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول في الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»(١).

وروى أبو داود في «سننه» عن أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ

(١) البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٠٣).

تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ، تقولين: اللهُ، اللهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

وروى أبو داود في «سننه» عن أبي بكرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[2].

وروى التِّرمذي في «سننه» عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ ما دَعَا بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَه»[3].

---

(١) أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (١٨٢٤).

(٢) أبوداود (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٨).

(٣) التِّرمذي (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٣).

هذه الأحاديثُ الأربعةُ عظيمةٌ وصحيحةٌ وثابتةٌ عن النَّبيِّ ﷺ فيها علاجٌ للكرب الَّذي يُصيب الإنسان، ودواءٌ للغمِّ والحزن والهمِّ.

ووالله الَّذي لا إله إلَّا هو! إنْ أتى بها الإنسانُ متأمِّلًا معناها، محقِّقًا لمقصودها ومقتضاها لن يبقَ في قلبه من الهمِّ مقدار ذرَّة؛ فإنَّها دواءٌ نافع، وعلاجٌ مبارك، وشفاءٌ لما في الصُّدور، ولكن يحتاج المسلم إذا قال هذه الأذكار المباركة أن يتأمَّل في معناها، وأن يعرف مدلولها، وأن يحقِّق مقصودها.

يقول العلماء: «إنَّ الإتيان بالأذكار المأثورة والدَّعوات المشروعة بدون علمٍ بالمعنى وتفقُّهٍ في الدَّلالة ضعيفُ التَّأثير، قليل الفائدة».

ولهذا نحتاج لهذا الفهم في ذكرنا لله عَزَّوَجَلَّ.

كثيرٌ منَّا يأتي بالأذكار الشَّرعية ويواظب عليها؛ لكنَّه لا يقف متأمِّلًا في دلالتها! فيضعف أثرها عليه.

ولو وقفنا متأمِّلين في هذه الأذكار الأربعة الَّتي أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّها علاج للكرب؛ لوجدنا أنَّها تَشترك في شيء واحد، وهو تحقيق التَّوحيد الَّذي خُلق العبد لأجله، ووجد لتحقيقه، التَّوحيد الَّذي هو إخلاص العبادة لله وإخلاص الطَّاعة له ـ سبحانه وتعالى ـ، هو المفزع للإنسان في كرباته وفي جميع همومه وغمومه، ولا زوال للهموم والغموم إلَّا إذا حقَّق العبد التَّوحيد، وفزِع إلى الله وأخلص دينه لله ـ تبارك وتعالى ـ.

وتأمَّل ـ أخي القارئ ـ معي الأذكار الأربعة.

الأوَّل: حديث ابن عبَّاس أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول في الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ

العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ».

لَّمَا يقول المكروب هذا الذِّكر المبارك، وهو يتأمَّل معناه، ويقف عند دلالته:

«لا إله إلَّا الله»، يتذكَّر توحيد الله، وأنَّه إنَّما خُلق للتَّوحيد، وأوجد لأجل تحقيقِ مدلولِ «لا إله إلَّا الله»، ليشغل قلبَه ووقتَه وحياتَه بـ«لا إله إلَّا الله»، هو خُلق لأجل ذلك، ولهذا ينبغي أن تكون «لا إله إلَّا الله» هي أكبر همِّ الإنسان، وأهمُّ شغل الإنسان، وأعظمُ اتِّجاه الإنسان، وجلُّ اهتمامه، فهو لم يُخلَق إلَّا لأجلها، ولم يوجد إلَّا لتحقيقها، فهي مقصودُ الخليقة، وأساسُ إيجاد النَّاس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ما خلقهم الله إلَّا لأجل «لا إله إلا الله»، وهي تعني: إخلاص العبادة لله، وإخلاص الدِّين له.

«لا إله إلَّا الله»: أي لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، فيها نفيٌ وإثباتٌ، نفيٌ للعبوديَّة عن كلِّ مَنْ سوى الله، وإثباتٌ للعبوديَّة بجميع معانيها لله وحده.

فالَّذي يقول: «لا إله إلَّا الله» لا يسأل إلَّا الله، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يلتجأ إلَّا إلى الله، ولا يعتمد إلَّا على الله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا يطلب شفاءَ هُمُومِه وغمومِه وأحزانِه إلَّا مِنَ الله.

فيقول: «لا إله إلَّا الله العظيم الحليم»: يتذكَّر عظمة الله، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الكبير المتعال، وهو العليُّ العظيم، فيتذكَّر عظمة الله، وكمال قوَّته، وكمال اقتداره، وإحاطته بخلقه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنَّه لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، ويتذكَّر حُلم الله عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ يقول: «لا إله إلَّا الله ربُّ العرش العظيم، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ

الكَرِيمِ»، فيتذكَّر خلقَ الله للعرش، ذلك المخلوق الَّذي هو أكبر المخلوقات وأوسعها، ولهذا وُصف في هذا الذِّكر بأنَّه عظيم، ووصف بأنَّه كريم، و«الكَرَمُ» هو السَّعة، و«العرش» هو أوسع المخلوقات وأكبرها، فيتذكَّر عظمة الله بتذكُّر عظمة مخلوقاته الَّتي أوجدها الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ يتذكَّر خلق الله للسَّموات، وخلق الله للأرض، يتذكَّر هذه المعاني الجليلة، وهو يردِّد هذه الكلمات، فينشغل قلبُه بها، ويَنْصَبِغُ فؤادُه بها، وتكون هي شغله، فأيُّ باقية تبقى للهمِّ أو الغمِّ أو الحزن مادام القلب منشغلًا بذلك؟!

ولهذا نستفيد من هذا الدُّعاء وغيرِه أنَّ علاج الهمِّ والغمِّ توحيدُ الله، ذكرُ الله، تعظيمُ الله، تنزيهُ الله، الالتجاء إلى الله، هذا هو العلاج.

ففي حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها قال: «أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ»، وهذا منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ تشويقٌ لها إلى الفائدة، وترغيبٌ لها، فلمَّا اشتاق قلبُها رضي الله عنها إلى ذلك؛ علَّمها، قال: تقولين: «اللهُ، اللهُ ربِّي، لا أشرك به شيئًا».

هذا علاجٌ للهمِّ: «اللهُ، اللهُ رَبِّي، لا أُشرك به شيئًا».

«الله» الأولى: مبتدأٌ، والثَّانية: تأكيد لفظيٌّ له؛ لعظم الأمر وكِبَرِ المقام، وهو توحيد الله وإخلاص الدِّين له.

«الله، الله»، تكرِّر هذه الكلمة مرَّتين حتَّى تملأ القلب، وهو يتأمَّل فيها.

«الله، الله ربِّي»، ومعنى «الله»: أي ذو الألوهيَّة، وذو العبوديَّة على خلقه أجمعين، الَّذي تُصرف له جميع أنواع الطَّاعات.

من هو الله؟ من هو المعبود بحقٍّ؟ قال: ربِّي، «اللهُ ربِّي».

ومعنى قوله «الله ربِّي»: أي عبادتي وتوجُّهي وقصدي والْتِجَائي واعتمادي كلُّه على ربِّي الَّذي خلقني.

ومعنى «ربِّي»: «الرَّبُّ» هو: الخالق الرَّازق المنعِم المدبِّر المتصرِّف في شؤون خلقه كلِّها، الَّذي بيده أزمَّة الأمور ـ تبارك وتعالى ـ.

وهذا هو معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

«لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»: وهذا فيه البراءة من الشِّرك.

فعلاج الهمِّ: إخلاصُ التَّوحيد والبراءةُ من الشِّرك؛ بأن يعتمِدَ العبدُ على ربِّه ـ سبحانه وتعالى ـ في كلِّ ملمَّاته، وفي جميع أموره ومهمَّاته.

وقولـه: «لَا أُشْرِكُ»؛ هـذا فيـه الـبراءة مـن الـشِّرك، و«الـشِّرك» هـو تـسوية غـير الله بـه في أيِّ شيء مـن خصائص الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، سـواء في الرُّبوبيَّـة أو الألوهيَّـة أو الأسماء والصِّفات.

«لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»: و«شيئًا»؛ هنا نكرةٌ في سياق النَّفي فَتَعُمُّ، أي: لا أشرك به شيئًا أيَّ شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، دقيقًا كان أو جليلًا، وهذا فيه البراءة من الشِّرك كلِّه.

فإذا قال المسلمُ هذه الكلمة العظيمة؛ ذهب عنه الكربُ؛ لأنَّ قلبه انشغل بأعظم الأمور وأوجب الواجبات وأجلِّ المقاصد وأعظم الغايات، وهو توحيد الله.

فما بقي للغمِّ فيه مكانٌ؛ لأنَّه منشغلٌ بالتَّوحيد، وبالإيمان، وبالإخلاص للرَّبِّ العظيم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وفي الحديث الثَّالث ـ حديث أبي بكرة رضي الله عنه ـ قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ ـ يعني دعوات من أصابه كرب ـ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

ما أعظمها من دعوات!

«اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو»: أي رحمتك وحدك أنت يا الله، لا أرجو رحمةَ أحدٍ سواك، وهذا فيه الإخلاص، وفيه التَّوحيد.

«رَحْمَتَكَ أَرْجُو»: أصل الجملة: «أرجو رحمتك»، تقدَّم المعمولُ على العامل؛ ليفيد الحصر.

وهذه صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ

رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

[الإسراء: ٥٧].

فيبدأ دعوته لطرد الكرب الَّذي أصابه بهذا التَّوحيد: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو»؛ يعني أرجو الرَّحمة منك وأطلبها منك، ولا أطلبها من أحدٍ سواك.

«فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»؛ وهذا فيه افتقار العبد الكامل إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ لحظة من لحظاته، وفي كلِّ سكون من سكناته، فأنت فقيرٌ إلى الله حتَّى في طَرْفَةِ العَيْنِ، مفتقرٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ شؤونك، لا غنَى لك عن ربِّك، وأمَّا الله فهو غنيٌّ عنك من كلُّ وجه، وأنتَ فقيرٌ إليه من كلِّ وجه، ولهذا تقول: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

إنْ وَكلك اللهُ إلى نفسك ـ ولو للحظةٍ واحدةٍ ـ تَضيع وتضلُّ، من وُكل إلى نفسه ضاع، ومن وُكل إلى

غير الله ضاع، ولهذا من نعمة الله عليك أن لا يكِلَك إلَّا إليه؛ لأنَّه إذا وَكَلك إليه ـ سبحانه ـ وكَلَك إلى قوَّة وعزَّة وقهر وسلطان: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر: ٣٨].

فأنتَ إذا كنت متوكِّلًا على الله لن تخاف من شيء وخافك كلُّ شيء، وإذا لم تكن متوكِّلًا على الله أخافك الله من كلِّ شيء، حتَّى ما تتوكَّل عليه من المخلوقات تُوكل إليها؛ فتكون سببًا لضياعك وهلاكك، كما جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»(١).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والحاكم (٤/ ٢٤٠) وصحَّحه، وابن حبَّان في «صحيحه» (٦٠٨٦) عن عقبة بن عامر الجهني؛ قال الهيثمي (٥/ ١٠٣): «رواه أحمد وأبو يعلى والطَّبراني ورجالهم ثقات».

لأنَّ الَّذي تعلَّق التَّميمة وتعلَّق الودعة علَّق قلبَه بها فيضيع، بينما المسلم لا يعلِّق قلبه إلَّا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يلتجئ إلَّا إلى الله، ولا يعتمد إلَّا على الله.

«وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ»: وهذا فيه افتقارك إلى الله في إصلاح شأنك كلِّه، فشأنُك في دينك، وشأنك في دنياك وشأنك في آخرتك لا يصلُح إلَّا إذا أصلحه الله لك.

ولهذا كان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، والمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»(١).

«وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»: ثمَّ ذَكَرَ كلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله»؛ أي لا معبود بحقٍّ سواك،

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة ﷺ.

لا يُلتجأ إلَّا إليك، ولا يُعتمد إلَّا عليك، ولا يتوكَّل إلَّا عليك، ولا تفوَّض الأمور إلَّا لك، «لا إله إلَّا أنتَ»، فهذا من الأمور الَّتي يُعالج بها الكرب.

والحديث الرَّابع: حديث سعد بن أبي وقَّاص أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ..»، انظر هذا الكرب الَّذي أَصاب يونس عليه السلام، التقمه الحوت ودخل به في أعماق البحر، انظر هذا الكرب العظيم؛ في بطن الحوت، وفي أعماق البحر، مصيبةٌ عظيمة! فما كان منه عليه السلام إلَّا أن أخذَ يُردِّد هذه الكلمات: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمينَ»، وهو في الظُّلمات ينادي، في الظُّلمات؛ ظلمات بطن الحوت وظلمات البحر وظلمات اللَّيل، وهو في أعماق البحر، ويردِّد هذه الكلمات: «لا إله إلَّا أنْتَ سُبحانَك إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمين».

هذه دعوة ذي النُّون إذْ دعا بها في بطن الحوت، فكان يكرِّرها؛ فأذِنَ الله عَزَّوَجَلَّ للحوت وأمرها أن تُلقيَه، وأنبت عنده شجرةً من يَقْطِين، وأعاد عليه صحَّته وقوَّته بعد أن كان في أعماق البحر.

لكن هذه الدَّعوة المباركة كان يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يقولها وهو يثق بالله، ويعتمد على الله، ويلتجئ إلى الله، ويعلم أنَّ فرج همِّه بيد الله ـ سبحانه ـ.

وهذه الكلمة تضمَّنت أمورًا أربعة:

الأمر الأوَّل: التَّوحيد «لا إله إلَّا أنت»: توحيد الله.

والأمر الثَّاني: تنزيه الله «سبحانَكَ»: ومعنى سبحانك يعني: أنزِّهك ـ يا الله ـ عن كلِّ ما لا يليق بك، أنزِّهك عن النَّقائص والعيوب، أنزِّهك عمَّا يصفك به الواصفون من أعداء الرُّسل: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصَّافَّات: ١٨٠].

الأمر الثَّالث: الاعتراف بالظُّلم والتَّقصير: «إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمين».

والأمر الرَّابع: العبوديَّة لله ـ سبحانه وتعالى ـ واعترافك بأنَّك عبدٌ لله عَزَّوَجَلَّ ولا غنى لك عن الله طَرْفَة عيْن، فهذا فيه علاجٌ عظيم وشفاءٌ مبارك.

ولهذا يفزَع الإنسان في كلِّ ملمَّاته، وفي جميع أهواله وشدَّاته إلى الله، لا يُلجأ إلَّا إلى الله، في أيِّ مصيبةٍ تصيبُه، وأيِّ نازلةٍ تنزلُ به، لا يُلجأ إلَّا إلى الله.

المخلوقاتُ كلُّها والنَّاسُ جميعهم ـ والله ـ ما يملكون لك شيئًا، إنْ أرادك الله بضرٍّ ما يملكون دفعَه، وإن أرادك برحمة ما يملكون إمساكَها: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

الضُّرُّ الَّذي أراد الله نزوله لا يملكون كشفَه ولا رفعَه، فالخافض الرَّافع القابض الباسط المعطي المانع المعزُّ المذلُّ الَّذي بيده أزمَّة الأمور؛ هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يُلجأُ إلَّا إليه ولا يُعتمد إلَّا عليه ـ سبحانه وتعالى ـ.

فهذه دعواتٌ أو أذكارٌ أربعةٌ ثبتت في السُّنَّة عن النَّبيِّ ﷺ في علاج الكرب.

وجاء في حديث آخر عظيم رواه الإمام أحمد في «مسنده» وغيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي

عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى؛ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[1].

نحن ربَّما أنَّنا سمعناها مرَّاتٍ، ذُكرت لنا في بعض الخطب، في بعض الدُّروس، قرأناها في بعض الكتب، لكن ربَّما بعضنا لم ينشط لتعلُّمها، لا من جهة الحفظ، ولا من جهة فهم المعنى، ولا من جهة قولها عندما يصيبنا الهمُّ.

(١) «مسند أحمد» (١/ ٣٩١)، وصححَّه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٩٩)، وانظر في شرح هذا الحديث «الفوائد» لابن القيِّم (ص٤٤).

فهذه ثلاثة أنواع من التَّفريط: إمَّا أن يفرِّط الإنسان في حفظها أصلًا وقراءتها ومذاكرتها، أو أنَّه يحفظها ولكنَّه يفرِّط في فهم معناها والوقوف عند دلالتها، أو أنَّه يفرِّط في الإتيان بها، يصيبه الهمُّ والغمُّ فينشغل بأمور كثيرة، ولكنَّه لا يخطُر بباله هذا الدُّعاء المبارك.

ينبغي أن نُحاسب أنفسنا عليها، وأن نجاهد أنفسنا على معالجتها، فهذا دعاءٌ مبارَكٌ أخبر ـ صلواته وسلامه عليه ـ أنَّه ما من عبد يصيبه همٌّ أو غمٌّ فيقوله إلَّا أذهب الله غمَّه وهمَّه وأبدله مكانه فرحًا، ـ وفي رواية: فرجًا ـ بدل الغمِّ الَّذي يغطِّي القلب ويؤلمه، يتحوَّل فرحًا بعد الدُّعاء، يتحوَّل إلى ارتياح، ومن بعد ذلك يأتي فرجٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للأمر الَّذي ألمَّ بالإنسان، والَّذي دلَّنا على ذلك وأخبرنا به وأرشدنا إليه الصَّادق المصدوق الَّذي لا ينطق عن الهوى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ووالله! إنَّ هذا الكلام لحقٌّ، وإنَّ فيه لتفريجًا للهموم وشفاءً للغموم، وحصولًا للفرج وتحقيقًا للفرح كما أخبر بذلك رسولُنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

ونحن في هذا الدُّعاء نحتاج إلى أمورٍ ثلاثة، أشرتُ إليها:

الأمر الأوَّل: أن نحفظه.

والأمر الثَّاني: أن نفهم معناه.

والأمر الثَّالث: أن نحافظ عليه عندما يصيب أحدَنا همٌّ أو غمٌّ.

وعندما نتأمَّل هذا الدُّعاء؛ نجد أنَّه يشتمل على أصول أربعة لابدَّ منها لعلاج الهموم والغموم، ولابدَّ أن نتأمَّلها وأن نحرص على فهمها عندما نأتي بهذا الدُّعاء:

الأصل الأوَّل: تحقيق العبوديَّة لله، إذا أردتَ لهمومك الذَّهاب؛ فحقِّق العبودية لله، وانظر تحقيق العبودية في

هذا الدُّعاء، أوَّل ما تبدأ تُحقِّق العبودية، تقول: «اللَّهمَّ إنِّي عبدُك ابنُ عبدِك ابنُ أمَتِك»، فقوله: «إنِّي عبدك»؛ أي بمعنى عابدٌ لك، أعبدك، أدعوك، أرجوك، أسألك، أعتمد عليك، ألتجئ إليك.

وتحتمل: أنا عبدٌ لك، أي: أنا معبَّدٌ لك، مذلَّلٌ لك، أنت خلقتني، أنت أوجدتني من العدم وخلقتني بعد أن لم أكن، وأنت الَّذي تدبِّر أموري.

«ابن عبدك ابن أمتك»؛ فأنا عبدك ووالدي ووالده إلى آدم، كلُّهم عبيدٌ لك، أنت الَّذي خلقتَهم، وأمِّي وأمُّها إلى حوَّاء، كلُّهنَّ إماءٌ لك، أنت الَّذي أوجدتهنَّ.

فأنا عبدك، وأنا عبد لك، ألتجئ إليك، وأدعوك، وأعتمد عليك، وأفوِّض أموري إليك، فهذا الأصل الأوَّل: تحقيق العبودية لله.

الأصل الثَّاني: الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ ما لم يكن، ولهذا قال: «نَاصِيَتِي بِيَدِكَ،

مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»، هذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر، وأنَّ الأمور كلَّها بقضاء الله وقدره.

«ناصيتي بيدك»: «النَّاصية» مقدَّمة الرَّأس، وناصية كلِّ إنسان بيد الله، يدبِّرها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

فنواصي العباد بيد الله، يدبِّرهم كيف يشاء، ويقضي فيهم ما يريد، يحي هذا ويميت هذا، ويغني هذا ويفقر هذا، ويعزُّ هذا ويذلُّ ذاك، ويمرض هذا ويشفي هذا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالأمر لله ـ سبحانه وتعالى ـ من قبلُ ومنْ بعدُ، وكلُّ أمر إنَّما يقع بقضاء الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم

يكن، ولهذا مِنْ أعظم ما يكون في علاج الهمِّ والغمِّ الإيمانُ بالقضاء والقدر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ [التغابن: ١١].

قال بعض السَّلف: «هو العبد المؤمن تصيبه المصيبةُ فيعلم أنَّها من عند الله فيرضى ويسلِّم».

ولهذا الإيمان بالقدر له أثرٌ مباركٌ على العبد في راحة قلبه وطُمأنينة نفسه، ولهذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ـ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ـ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رواه مسلم(١).

المؤمن في السَّراء يعلم أنَّها نعمة من الله؛ فيحمد الله عليها، وفي الضَّراء يعلم أنَّ المصيبة بقضاء الله ـ سبحانه

(١) برقم (٢٩٩٩).

وتعالى ـ، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فيصبر عليها، فهو في النِّعمة ينال ثواب الشَّاكرين، وفي المصيبة ينال ثواب الصَّابرين، وهذا لا يكون إلَّا للمؤمن.

الأصل الثَّالث: الإيمان بأسماء الله وصفاته، والتَّوسُّل إليه ـ سبحانه وتعالى ـ بها، ولهذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ؛ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»، فمعرفة أسماء الله ومعرفة صفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة، والتَّوسُّل إلى الله بها؛ مِنْ أعظم الأمور الَّتي تكشف بها الهموم وتُزال بها الغموم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ

إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤]، فالتَّوسُّل إلى الله بأسمائه وصفاته أعظمُ الوسائل، وهو مِنْ معاني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، يعني ابتغوا القرب إليه بما يرضيه ومِمَّا يُرضي الله توسّل عباده إليه بأسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ، ولهذا كان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يتوسَّل إلى الله بأسمائه، كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ»، توسَّلَ إلى الله بعلمه، وتوسَّل إلى الله بقدرته،

«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»(١).

وفي القرآن: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩]، توسُّل إلى الله برحمته ـ سبحانه وتعالى ـ، وفي دعاء الاستخارة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ»، توسُّل إلى الله بالعلم وبالقدرة، ولهذا يتوسَّل المسلم إلى الله بأسمائه وصفاته ـ سبحانه وتعالى ـ، وهنا توسُّل عامٌّ شامل بأسماء الله كلِّها، ما علمناه منها وما لم نعلمه.

وهذا الحديث يدلُّنا على أنَّ هناك أسماء حسنى لله استأثر الله بها في علم الغيب عنده لم ينزِّلها في كتابه ولم يعلِّمها أحدًا من خلقه، وقد جاء في حديث الشَّفاعة

(١) أخرجه النَّسائي (١٣٠٥)، وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

العظيم عندما يشفع النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ للخلائق بأن يأذن الله بحسابهم قال: «فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي»[1].

فهناك أسماءٌ لله استأثر بها ـ سبحانه ـ في علم الغيب عنده، وهذا الدُّعاء فيه توسُّل إلى الله بكلِّ اسمٍ هو له سمَّى به نفسه، أو أنزله في كتابه، أو علَّمه أحداً من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده، وفي هذا ـ أيضًا ـ دلالة على أنَّ معرفة الله ومعرفة أسمائه ومعرفة صفاته أعظم الأمور الَّتي تتحقَّق بها السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، كلَّما ازداد الإنسان معرفةً بالله وأسمائه وصفاته ازداد تعظيمًا له وإقبالًا عليه وبُعدًا عن معاصيه، كما قال

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بعض السَّلف: «من كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد»، فكلَّما زادت معرفتك بالله؛ زاد الخير فيك.

الأصل الرَّابع: العناية بالقرآن الكريم قراءةً وتدبُّرًا وتطبيقًا، ونحن ما تكاثرت علينا الهموم ولا انتشرت فينا الغموم والهموم إلَّا لبُعْدِنا عن القرآن، وإلَّا لو كنَّا متمسِّكين بالقرآن، قريبين منه نتلوه حقَّ تلاوته؛ لَكُنَّا أسعد النَّاس، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ويقول: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن شفاءٌ ودواءٌ وهداية وموعظةٌ وذكرى للذَّاكرين، وتجد الإنسان عندما يتألَّم من بعض الأمور فيمسك بكتاب الله ويقرأ متدبِّرًا، ما هي إلَّا لحظاتٌ ويجد الصَّدر منشرحًا، والطُّمأنينة تكسو القلب،

والأنس يعمره، حتَّى إنَّه يظنُّ أنَّ ما عنده أيّ مشكلة، مع أنَّه عنده مشاكل كثيرة؛ لكنَّه مع الطُّمأنينة الَّتي تغشى صاحبَ القرآن والسَّكينة الَّتي تنزل عليه، ولا سيما إذا كان يتدبَّر القرآن، يقول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله؛ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ المَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(١).

فالقرآن شفاءٌ، والاستشفاء بالقرآن ليس بأن يشتري الواحد منَّا مُصحفًا ويعلِّقه في الرَّفِّ أو يضعه في مقدِّمة السَّيَّارة، وفي الوقت نفسه يتَّخذ كتاب الله مهجورًا، لا يقرؤه، ولا يتدبَّره، ولا يجاهد نفسه على تطبيقه، ليس هذا هو الاستشفاء بالقرآن.

الاستشفاء بالقرآن بأمور ثلاثة: بقراءته، وتدبُّره، والعمل به.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١]، ومعنى يتلونه حقَّ تلاوته؛ أي يقرؤونه ويفهمون معناه ويعملون بمقتضاه، ومن التِّلاوة العمل.

تلاوة القرآن لا تكون بمجرَّد قراءته، بل لابدَّ فيها من العمل به، ولهذا يقولون: تلا فلانٌ فلانًا؛ أي تبعه، فلابدَّ من العمل بالقرآن، ولهذا فإنَّ العناية بالقرآن قراءةً وتدبُّرًا وتطبيقًا هو أساس السَّعادة والفلاح وزوال الهموم والغموم، ولهذا ختم هذا الدُّعاء بقوله: «أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»، إذا كان القرآن هذا شأنه في قلبك وهذا شأنه في صدرك، نور صدرك وربيع قلبك وجلاء حزنك وذهاب همِّك وغمِّك، هل الغموم والهموم تجد طريقًا إلى قلبك؟ هل لها مدخل إلى صدرك وفؤادك؟ لا، والله! لأنَّه معمور بالخير، والقلوب أوعية، فالقلب

وعاء، إذا ملأته بالذِّكر والقرآن واستحضار عظمة الله؛ ما بقي لهذه الأمور أيُّ مكان؛ لكنَّه إذا ضعف فيه الإيمان وضعف فيه الذِّكر وضعفت فيه الصِّلة بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وجدت هذه الأمور إليه طريقًا وسبيلًا، قال: «أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي»، لَمَّا ذكر القلب ذكر الرَّبيع، ولَمَّا ذكر الصَّدر ذكر النُّور؛ لأنَّ النُّور ينعكس على ما في داخله، و«الرَّبيع» هو الماء الَّذي يصل إلى النَّبات، فيغذِّيها، ثمَّ يشعُّ فيها الخير، فأنت إذا دخل القرآن إلى قلبك؛ أصبح مثل الرَّبيع ينبتُ أنواعَ الزُّهور وأنواعَ الحدائق وأنواعَ الثِّمار الَّتي لا أطيب منها ولا أجمل ولا أحسن، وإذا شعَّ صدرك بالنُّور أصبحت حياتك كلُّها نورًا وضياءً.

قال: «وَجَلَاءَ حُزْنِي» أي أن يجلو حزني ويذهبه، فلا يبقى منه شيءٌ بالقرآن، بالاستشفاء بالقرآن.

«إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ غَمَّهُ وَهَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ فَرَحًا» وهذه هي الثَّمرة.

هذه تذكرةٌ حول هذه الأذكار المباركة والدَّعوات العظيمة، وأوصي نفسي وإخواني بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ وأن نتعاهد أذكار النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ودعواته المأثورة عنه بتعلُّمها ومدارستها ومذاكرتها وتطبيقها، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يفرِّج همومنا جميعًا، وأن ينفِّس كرباتنا ، وأن يُصلح لنا شأننا كلَّه وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طَرْفَة عين، وأن يهدينا جميعًا سواء السَّبيل.

والله تعالى أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وآله وأصحابه أجمعين.

الفهرس